والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» (١) ؛

وظن بعض الباحثين أنه يميل الى اللفظ كل الميل ، وأنه لا يرى للمعنى كبير أهمية ، والواقع انه عُني باللفظ وأعطاه نصيبه من الاهتمام ، وشُغل بالمعنى والتصوير الادبي الذي يقول عنه : «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » ، وهذه نظريته التي شرحها عبد القاهر الجرجاني وسماها « نظرية النظم » ، فالجاحظ اهتم بالالفاظ والمعاني والتصوير مع انه يرى أن بعضهم لايحفل الا بالمعنى وحده كأبي عمرو الشيباني الذي يرى أن المعنى متى كان رائعاً حسناً ظل كذلك في أية عبارة وضع فالبيتان :

لاتحسبنَّ المَوتَ موتَ البلى فانّما الموتُ سؤالُ الرجال
كلاهما مَـوْتٌ ولكـنّ ذا أفظعُ مـن ذاك لذلِّ السؤال

استحسنهما أبو عمرو على حين ليست عليهما مسحة من جمال سوى الوزن ؛ وعابه الجاحظ ورأى أنه مسرف في تقديرهما ، وقال : «وأنا رأيت أبا عمرو الشيباني وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلّف رجلا حتى أحضره دواة وقرطاسا حتى كتبهما له ، وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبـداً ، ولولا أن أدخل في الحكم ببعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعراً أبداً » (٢) .

لقد اهتم الجاحظ باللفظ ولكنه لم يهمل المعنى ، ولذلك فليس صحيحا ماذهب اليه بعضهم وهو أنّ الجاحظ كرّس جهوده لخدمة الالفاظ ، ولاجله خاض عبد القاهر الجرجاني غمار هذا البحث. ويرى الدكتور محمد مندور أن كل آراء عبد القاهر تنحصر في مسألتين:

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١.
(٢) الحيوان ج٣ ص ١٣١ .

**الاولى** : انكاره لما رآه الجاحظ من اهمية فصاحة الالفاظ باعتبار تلك الفصاحة صنعة في اللفظ ذاته، ثم ثورته على مذهب أبي هلال العسكري الذي يردّ جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.

**الثانية** : تعليقه جودة الكلام بخصائص في النظم (١).

وعبارة الجاحظ «فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»، وما نقله عبد القاهر من اهتمامه بالصياغة والصناعة، خير ما يفند هذا الرأي، لان عبد القاهر سار على خطا الجاحظ ونقل مصطلحه في التصوير وقال : «وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئا نحن ابتدعناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العرب ويكفيك قول الجاحظ «وانما الشعر صناعة وضرب من التصوير»(٢). فالجاحظ من أصحاب الصياغة، ولذلك تسقط عنه تهمة الاهتمام بالشكلية والالفاظ، وان كان كثير الاعتناء باللفظ واختيار ما يؤدي المعنى أداءً حسنا، وهذه مهمة الاديب الذي يقدّر قيمة الكلام ويبذل في سبيله أعظم الجهود، وقد كان الجاحظ اديباً كبيراً وعالماً قديرا، فعُني بالالفاظ كما عُني بالمعاني وكان له الفضل في تصوير نظم الكلام.

**ابن قتيبة :**

وتحدث ابن قتيبة (– ٢٧٦هـ) عن الالفاظ، وذكر ان الشعر أربعة أضرب :

١ – ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل في بعض بني أمية (٣) :

في كفّه خيزران ريحهُ عَبِقٌ     من كفّ أروع في عرنينه شَمَمُ

يُغضي حياء ويُغضَى من مهابته     فما يُكلَم الاّ حين يبتسم

وكقول أوس بن حجر :

---

(١) ينظر في الميزان الجديد ص ١٤٩.

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٨٩.

(٣) كذا في الشعر والشعراء، وفي الهامش للحزين الكناني من أبيات يمدح بها عبد الله بن عبد الملك بن مروان. والبيتان في ديوان الفرزدق ج ٢ ص ١٧٨ (طبعة مكتبة صادر)، وهما في مدح زين العابدين رضي الله عنه.

أبتها النفس اجملي جزعا     إن الذي تحذرين قد وقعا

٢ – وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت فتشته لجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منىً كل حاجة     ومسح بالاركان من هو ماسحُ
وشدّت على حدْب المهاري رحالنا     ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا     وسالت بأعناق المطي الاباطح

يقول ابن قتيبة : «هذه الالفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وان نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الاركان وعالينا ابلنا الانضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الاباطح» (١).

ونحوه قول المعلوط :

إن الذين غدوا بلبك غادروا     وشلاً بعينك لا يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي:     ماذا لقيت من الهوى ولقينا (٢)

٣ – وضرب منه جاد معناه وقصرت الفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه     والمرء يصلحه الجليس الصالح

٤ – وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه ، كقول الاعشى في امرأة:

وفوها كأقاحي     غذاه دائم الهطل
كما شيب براح با     رد من عسل النحل

ولم يشر ابن قتيبة إلى لفظة «الفصاحة» في كتابه «الشعر والشعراء» ولكنه استعمل كلمة «الالفاظ»، ويرى أن المحدث ليس له أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام ككثير من أبنية سيبويه، ولا أن يسلك فيما يقول الاساليب التي لا تصح

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٦٦، ويعيب الناقد الجرجاني غير هذا الرأي فهو يراها من أبدع الشعر وأعذبه وقد حللها تحليلا جميلا. (ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٨) .

(٢) البيتان في ديوان جرير ص ٥٧٨، وهما من قصيدة في هجاء الاخطل.

في الوزن ولا تحلو في الاسماع. يقول: «وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي وأسهل الالفاظ وأبعدها من التعقيد والاستكراه واقربها من أفهام العوام. وكذلك اختار للخطيب اذا خطب والكاتب اذا كتب فانه يقال: «أسير الشعر والكلام المطمع» يراد الذي يطمع في مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد المتناول» (١).

وفي كتابه «أدب الكاتب» حديث عن الالفاظ والابنية، ولكنه لا يسميها «فصاحة» وانما هي قواعد يستعين بها الكاتب. وعقد في كتابه «عيون الاخبار» بابا سماه «كتاب العلم والبيان» تحدث فيه عن الاعراب واللحن والتشادق والغريب والبيان والالفاظ التي تقع في كتب الامان والعهود والخطب. وهو في هذه الابواب والفصول ليس كالجاحظ الذي أرسى كثيراً من قواعد الفصاحة ووضع أمثلتها التي تتردد في كتب البلاغة والنقد.

**المبرد :**

وليس فيما كتب المبرد (– ٢٨٥هـ) اشارة إلى الفصاحة وان كان يفضل أن تكون الالفاظ جزلة (٢).

**ثعلب :**

ولا فيما كتب أبو العباس ثعلب (– ٢٩١هـ) الذي اشار إلى جزالة الالفاظ(٣).

**ابن المعتز :**

ولا فيما ألف ابن المعتز (– ٢٩٦هـ) صاحب كتاب البديع.

**قدامة :**

وتحدث قدامة بن جعفر (– ٣٣٧هـ) عن نعت اللفظ، وقال ينبغي أن يكون سمحا، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٠٣.
(٢) الكامل ج ١ ص ٤٣.
(٣) قواعد الشعر ص ٥٩.

البشاعة (١)، وذكر عيوب اللفظ وهي :

١ ـ أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الاعراب واللغة.

٢ ـ وأن يركب الشاعر منه ماليس بمستعمل الا في الفرط.

٣ ـ ولا يتكلم به إلا شاذاً، وذلك هو الوحشي الذي مدح عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ زهيراً بمجانبته له وتنكبه اياه فقال : «لا يتبع حوشي الكلام».

٤ ـ ومن عيوب اللفظ المعاظلة، وهي التي وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته لها فقال : «وكان لا يعاظل بين الكلام». وهي ليست مداخلة الشيء في الشيء لانه محال أن ينكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أو فيما كان من جنسه، وانما يكون الانكار فيما يدخل بعضه فيما ليس من جنسه وما هو غير لائق به (٢) :

ابن وهب :

وفي كتاب «البرهان في وجوه البيان» (٣) لابي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب اشارات إلى جزالة اللفظ وسخافته وركاكته ، ولم يحدد معاني هذه المصطلحات واكتفى بالتمثيل وقال : «وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وهل عدوكَ يا ابن عمّ محمد رصدان ضوءُ الشمس والاظلامُ

فاذا تنبّه رُعتَهُ واذا غفا سلّت عليه سيوفكَ الأحلامُ

وأما سخافة اللفظ وركاكته فمثل قول الآخر :

يا عتب سيدتي أما لك دين حتى متى قلبي لديك رهين

فأنا الصّبور لكل ما حملتني وأنا الشقي البائس المسكين (٤)

(١) نقد الشعر ص ٢٦.

(٢) نقد الشعر ص ١٩٦ ـ ٢٠١ .

(٣) هو النص الكامل للكتاب المطبوع باسم «نقد النثر» المنسوب إلى قدامة بن جعفر .

(٤) البرهان في وجوه البيان ص ١٧٧.

وقال عن الفصيح: «وأما الفصيح من الكلام، فهو ما وافق لغة العرب ولم يخرج عما عليه أهل الادب، ولتصحيح ذلك وضع النحو، ولجمعه وضعت الكتب في اللغة، وذكر المستعمل منها والشاذ والمهمل: وحق من ينشأ في العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم، ولا يخرج عن جملة الفاظهم، ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم فيخطئوه ويلحنوه» (١).

وليس في هذه الاشارات ما يوضح رأى صاحب «البرهان» في الفصاحة كما عرفها الجاحظ ومعاصروه.

**العسكري:**

وذكر ابو هلال العسكري (– ٣٩٥هـ) رأيين في الفصاحة:

**الاول:** ان الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وان اختلف اصلاهما لان كل واحد منهما هو الابانة عن المعنى والاظهار له. يقول: «فاما الفصاحة فقد قال قوم: انها من قولهم: أفصح فلان عما في نفسه اذا أظهره، والشاهد على انها هي الاظهار قول العرب: أفصح الصبح اذا أضاء. وأفصح اللبن اذا انجلت عنه رغوته فظهر، وفصح أيضاً. وأفصح الاعجمي اذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللسان اذاعبر عما في نفسه واظهره على جهة الصواب دون الخطأ. واذا كان الامر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وان اختلف أصلاهما» (٢).

**الثاني:** انهما مختلفان، وذلك انّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لان الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة انما هي انهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى. يقول: «وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يُسمّى الله تعالى فصيحاً اذ كانت الفصاحة تتضمن الآلة، ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالالة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان.

(١) البرهان ص ٢٥٢.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٧.

والدليل على ذلك أن الالثغ والتمتام لا يسميان فصيحين لنقصان آلتهما عن أقامة الحروف.

وقيل: «زياد الاعجم» لنقصان آلة نطقه عن اقامة الحروف، وكان يعبر عن «الحمار» بالممار، فهو أعجم وشعره فصيح لتمام بيانه» (١).

ووضَّح الامر بقوله: «ومن الدليل على ان الفصاحة تتضمن اللفظ والبلاغة تتناول المعنى، ان الببغاء يسمى فصيحا ولا يسمى بليغا اذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه. وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا اذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، غيرمستكره فج ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء لما فيه من ايضاح المعنىوتقويم الحروف»(٢).

وهذا هو رأيه، أما الرأي الاول فقد عرضه، لانّ بعضهم يذهب إلى ذلك، وعقد فصلا في تمييز الكلام تحدث فيه عن صفات الالفاظ الحسنة، وانتهى إلى أنّ الكلام اذا جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من الحيف في التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب — قبِلهُ ولم يردهّ، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه، والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ (٣).

وأعطى الالفاظ أهمية كبيرة، لانه ليس الشأن في ايراد المعاني، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب، وليس يطلب من المعنى الا أن يكون على هذه الاوصاف، وهو ما أشار اليه الجاحظ من قبل، ولكنه جعل التصوير أساس البيان.

---

(١) كتاب الصناعتين ص٧.

(٢) كتاب الصناعتين ص٨.

(٣) كتاب الصناعتين ص٥٧.

**ابن سنان :**

وعقد ابن سنان الخفاجي ( – ٤٦٦هـ ) في كتابه «سر الفصاحة» فصولا ضافية تحدث فيها عن صفات الحروف ومخارجها، وفصاحة اللفظة المفردة والالفاظ المؤلفة.

**والفصاحة عنده –** «الظهور والبيان» ، (١) والفرق بينها وبين البلاغة «أن الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع المعاني . لايقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغا » (٢) .

**ولكي تكون اللفظة الواحدة فصيحة** ينبغي ان تتوفر فيها بعض الشروط ، قال «وان الفصاحة على ما قدمنا نعت للالفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الالفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم. وتلك الشروط تنقسم قسمين **فالاول منها** : يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم اليها شيء من الالفاظ وتؤلف معه .

**والقسم الثاني** : يوجد في الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض » (٣) .

**فاما الذي يوجد في اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :**

**الاول : أن يكون** تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وعلة ذلك أن الحروف التي هي اصوات تجرى من السمع مجرى الالوان من البصر ، ولاشك في أن الالوان المتباينة اذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الالوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد احسن منه مع الصفرة .

---

(١) سر الفصاحة ص٥٩ .
(٢) سر الفصاحة ص٦٠ .
(٣) سر الفصاحة ص٦٥ .

ومثال التأليف من الحروف المتباعدة كثير جلّ كلام العرب عليه ، فأما تأليف الحروف المتقاربة فمثل «الهعخع» ، وقد رُوي ان الخليل بن احمد الفراهيدي قال : «سمعنا كلمة شنعاء هي الهعخع » وانكرنا تأليفها ». وقيل : ان اعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع » (١) . وقال ابن سنان : «والحروف الحلق مزية في القبح اذا كان التأليف منها فقط ، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعض الامزجة من الالوان وبعض النغم من الاصوات »(٢).

الثاني : ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسن ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة كما نجد لبعض النغم والالوان حسنا يتصور في النفس ويدرك بالبصر والسمع دون غيره من جنسه . ومثاله في الحروف «ع.ذ.ب» فان السامع يجد لقولهم « العُذيب» – اسم موضع – و« عذيبة» – اسم امرأة – و«عذب وعذاب» و« عذّب» و«عذبات» مالا يجده فيما يقارب هذه الالفاظ في التأليف . وليس سبب ذلك بعد الحروف في المخارج فقط ولكنه تأليف مخصوص مع البعد ، ولو قدّمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الاولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم يفسده التقديم والتأخير . وليس يخفى على أحد من السامعين أن تسمية الغصن غصنا أو فننا أحسن من تسميته عسلوجا ، وان أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط (٣) ؛ ومن الكلمات العذبة الجميلة «تفاوح» وقد استعملها المتنبي فقال :

إذا سارت الاحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده (٤)

وهي في غاية من الحسن ، وقيل : ان المتنبي أول من نطق بها على هذا المثال . ومثال مايكره قول المتنبي :

---

(١) سر الفصاحة ص٥٧.

(٢) سر الفصاحة ص٦٧.

(٣) الشوحط : شجر يتخذ منه القسي.

(٤) الرند : العود ، او الآس ، او شجر طيب الرائحة.

مبارك الاسم أغرّ اللقب كريم الجرشي شريف النسب(١)
فانك تجد في « الجرشي » تأليفاً يكرهه السمع وينبو عنه ، وأين كلمة «النفس» من هذه اللفظة الثقيلة ؟

**الثالث** : أن تكون غير متوعرة وحشية كقول أبي تمام :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهه بلا طائر سَعْد ولا طائر كهل

فان «كهلا» هنا من غريب اللغة ، ورُوي أن الاصمعي لم يعرف هذه الكلمة وأنها ليست موجودة الا في شعر بعض الهذليين وهو قوله :

فلو أن سلمى جاره أو أجاره رياح بن سعد ردّه طائر كَهْـل

وقيل : إن الكهل الضخم ، وهي لفظة ليست قبيحة التأليف لكنها وحشية غريبة لايعرفها مثل الاصمعي ولهذا اعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار اسماء المنازل والنساء في الغزل وتجنبوا مالا يحسن لفظه ، وعابوا على جرير قوله :

وتقول بَوْزَعُ قد دببت على العصا هلاّ هزئت بغيرنا يابَـوْزَعُ

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك قال له : أفسدت شعرك « ببوزع » .

وقد قال ابن سنان : «وأنا أكره من قول كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة :

وما روضة بالحزن طيبة الثرى يمجّ الندى جثجاثها وعـرارها

ذكر «الجثجاث» لأنه اسم غير مختار ، ولو أمكنه ذكر غيره كان عندي أليق وأوفق .

ولا أحب أيضاً تسمية أبي تمام صاحبه ـ علاثة ـ وندا ، بالترخيم في قوله :

قف بالطلول الدارسـات علاثا أضحت حبال قطينهن رثاثا

وإن كان الرويّ قاده إلى ذلك ، فليت شعري من حظر عليه القوافي واقتصر به على الثاء دون غيرها من الحروف» (٢) .

---

(١) كريم الجرشي : كريم النفس .

(٢) سر الفصاحة ص٧٦ .

الرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية، ومثال العامية قول أبي تمام:

جليت والموت مبدٍ حُرَّ صفحته وقد تفرعن في أفعاله الأجَلُ

فإن «تفرعن» مشتق من أسم «فرعون» وهو من ألفاظ العامة ، وعادتهم أن يقولوا : «تفرعن فلان» إذا وصفوه بالجبرية .

ومنه قول أبي نصر عبد العزيز بن نباتة:

أَقام قوام الدين زيغ قناته وأنضج كيّ الجرح وهو فطير

فلفظة «فطير» عامية مبتذلة .

ومنه قول أبي تمام :

قد قلت لما لجّ في صدّه أعطف على عبدك ياقابري

فإن «قابري» من ألفاظ عوام النساء .

ومن ذلك لفظة «أوجعتها» في قول ابن نباتة :

فقد رفعت أبصارها كل بلدة من الشوق حتى أوجعتها الاخادع

ولفظة «الجورب» في قول المتنبي :

تستغرق الكفّ فوديه ومنكبه وتكتسي منه ريح الجورب الخلق

**الخامس** : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة . ويدخل في هذا القسم ماينكره اهل اللغة ويردّه علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة، وقد يكون ذلك لاجل أن اللفظة بعينها غير عربية كما أنكروا على أبي الشيص قوله :

وجناح مقصوص تحيّف ريشه ريب الزمان تحيّف المقراض

وقالوا : ليس «المقراض» من كلام العرب، ولم يسمع عنهم إلاّ مثنّى .

وقد تكون الكلمة عربية الا انها قد عبَّرَ بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة، كما قال البحتري :

يشقّ عليه الريح كل عشية جيوب الغمام بين بكر وأيم

فوضع «الايم» مكان «الثيب» وليس الامر كذلك ، ليس الأيِّم الثَّيِّب في كلام العرب ، انما «الايم» التي لازوج لها بكراً كانت أو ثيبا .

ومن ذلك قول البحتري:

شَرْطيَّ الانصاف إن قيل اشترط    وصديقي مَنْ اذا صافى قسَط

وأراد «قسط» عدل ، لان الامر عليه، وليس الامر كذلك، وانما يقال «أقسط» اذا عدل «وقسط» اذا جار، ومنه قوله تعالى : «وأمَّا القاسِطونَ فكانوا لجهنَّمَ حَطَباً» (١).

وقد يكون على جهة الحذف من الكلمة كقول رؤبة بن العجاج:

قواطناً مكةَ من ورْقِ الحَمَا

يريد الحمام.

وقد يكون على وجه الزيادة في الكلمة مثل أن تشبع الحركة فيها فتصير حرفاً ، كما قال الشاعر:

وأنت على الغواية حين ترمي    وعن عَيْبِ الرجال بمنتزاح

أي : بمنترح.

وقد يكون ايراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل ، كلفظة «باهت» التي جاءت رديئة شاذة في قول البحتري .

متحيرين فباهتٍ متعجب    مما يرى أو ناظر متأمل

والعربي المستعمل «بُهِتَ الرجل يُبْهَتُ فهو مبهوت» .

ويدخل في هذا القسم مايسمى الضرورة الشعرية من اظهار التضعيف ،أو مدّ المقصور ، أو قصر الممدود ، أو تأنيث المذكر على بعض التأويل ، أو صرف مالا ينصرف وغير ذلك .

السادس: أن لاتكون الكلمة قد عبربها عن أمر آخر يكره ذكره، فاذا اوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وان كملت فيها الصفات، كقول الشريف الرضي:

أعزز علي بان أراك وقد خلت    من جانبيك مقاعدُ العوّادِ

فايراد «مقاعد» في هذا البيت صحيح ، الا انه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا

---

(١) الجن ١٥.

الشأن، لاسيما اضافته إلى من يحتمل اضافته اليهم وهم «العوّاد»، ولو انفرد لكان الامر سهلا فاما اضافته إلى ماذكره فقبها قبح لاخفاء به.

السابع : أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فانها متى زادت على الامثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة: ومن ذلك قول أبي نصر بن نباته:

فاياكم أن تكشفوا عن رؤوسكم ألا انّ مغناطيسهنّ الـذوائبُ

«فمغناطيسهن» كلمة غير مرضية لطولها.

ومنه قول أبي تمام:

فلاذربيجان اختيالٌ بـعـدما كانت معرّس عبرة ونكـال
سَمُجَتْ ونبهنا على استسماجها ماحولها من نَضْرة وجمـال

قوله «استسماجها» رديء لكثرة الحروف وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الالفاظ إلى الشاذ النادر.

ومنه قول المتنبي :

ان الكـريم بـلا كـرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها (١)

« سويداواتها » كلمة طويلة جدا .

الثامن : أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك ، فانها تحسن به: ومن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

وغابَ قُمير كنت أرجو طلوعه وروّح رعيان ونوّم سمر

وهذا تصغير مختار في موضعه، فأما الاسماء التي لم ينطق بها الا مصغرة كالكجين والثريا فليس للتصغير فيهما حسن بذكره لانه غير مقصود بهما ما ذهب اليه ابن سنان ، ومعظم هذه الشروط تدخل في فصاحة الالفاظ المؤلفة ، والاخلال بها قد يؤدي الى زيادة القبح والتنافر في الكلام، لانه حين تكون الالفاظ مجتمعة تحتاج الى دقة

(١) سويداء القلب : حبته، وجمعها سويداوات.

في التركيب واختيار اللطيف منها . يقول ابن سنان متحدثا عن الشرط الاول:
وأن « الاول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وهذا بعينه في التأليف، وبيانه أن يجتنب الناظم تكرر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة ، بل هذا في التأليف أقبح ، وذلك ان اللفظة المفردة لايستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثلما يستمر الكلام المؤلف إذا طال واتسع (١) » .
ومما قبح قول أبي تمام :

فالمجد لايرضى بان ترضى بأن يرضى المؤمل منك الا بالرضى

ومنه قول الآخر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبرحرب قبر

ومنه قول المتنبي :

وتسعدني في غَمْرة بعد غَمْرة سبوح لها منها عليها شواهد

وأما الثاني من شروط اللفظة المفردة فيكون في التأليف اذا ترادفت الكلمات المختارة فيوجد الحسن فيها اكثر وتزيد طلاوته على مالا يجمع من تلك الكلمات الا القليل ، وهذا يرجع الى اللفظة بانفرادها وليس للتأليف فيه الا ما أثاره التواتر والترادف .

وكذلك الثالث والرابع من الأقسام لاعلقة للتأليف بهما ، وإنما يقبح إذا كثر فيه الكلام الوحشي أو العامي .

وأما الخامس فللتأليف به علقة وكيدة ، لأن اعراب اللفظة تبع لتأليفها من الكلام وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه.

وأما السادس فللتأليف فيه تعلق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها، فإن القبيح يختلف بحسب ذلك.

---

(١) سر الفصاحة ص ١٠٧.

وأما السابع فلا علاقة للتأليف به، إلا أن ظهور قبحه أجلى إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال.

وأما الثامن فلا علاقة للتأليف به إذ كان لايتعدى الكلمة بانفرادها.

ودراسة ابن سنان للفصاحة من أخصب الدراسات، ولا يكاد المتأخرون يخرجون عنها في كل ماألفوا أو اختصروا أو شرحوا.

عبد القاهر.

وكانت الفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان ألفاظاً مترادفة عند عبد القاهر الجرجاني ( - ٤٧١هـ أو ٤٧٤هـ)، وكلها يعبر بها عن «فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم مافي نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم» (١).

والألفاظ عنده خدم للمعاني وأوعية لها تتبعها في حسنها وجمالها أو قبحها ورداءتها، يقول: «ولن تجد أيمن طائراً، وأحسن أولا وآخراً، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان من أن ترسل المعاني على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا مايزينها. فإما أن تضع في نفسك أنه لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم. فإن ساعدك الجد كما ساعد في قوله

أودعاني أمت بما أودعاني

وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله.

وأنجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع أنجدني على ساكني نجد

وقوله.

هن الحمام فإن كسرت عيافة من حائهن فإنهن حمام

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥.

عنداك ولا اطلقت ألسنة العيب »(١).

إن الفصاحة تكون في المعنى وليس للكلمة المفردة كبير قيمة، وكثيراً ماتستعمل اللفظة في موضع فتكون حلوة الجرس عذبة، وتستعمل في موضع آخر فتفقد تلك المزية، وإنما كان ذلك «لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح مزية تحدث بعد أن لاتكون وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم. وهذا شيء ان أنت طلبته فيها وقد جئت بها إفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لها تأليفاً طلبت محالاً. وإذا كان كذلك وجب أن تعلم قطعاً أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ» (٢).

فالألفاظ عند عبد القاهر لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ «الأخدع» في بيت الحماسة:

تلفتُّ نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتاً وأخدعا (٣)

وبيت البحتري:

واني وان بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في هذين البيتين مالايخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يادهرُ قوِّمْ من أخدعيك فقد أضججتَ هذا الانام من خُرُقِكْ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة.

---

(١) اسرار البلاغة ص ١٩، وينظر دلائل الاعجاز ص ٤٠١.

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٠٧.

(٣) الاخدعان: عرقان في جانبي العنق قد خفيا وبطنا، والليت: صفحة العنق

ومن أعجب ذلك لفظة «الشيء» فانك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع، وان اردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

ومن ماليء عينيه من شيء غيره   اذا راح نحو الجمرة البيضُ كالدُّمى

وإلى قول أبي حيّة النميري:

اذا ماتقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ   تقاضاه شيءٌ لايملُّ التقاضيا

فانك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر في بيت المتنبي:

لوالفلك الدوّار أبغضت سعيه   لعوّقه شيءٌ عن الدوران

فانك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم.

ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدةمواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لاتجدها في الباقي، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة «الجسر» في قول أبي تمام:

لايطمع المرء أن يجتاب لجته   بالقول مالم يكن جسرا له العمل

وقوله:

بَصُرْتَ بالراحة العظمى فلم ترها   تُنال إلاعلى جسْرٍ من التّعَبِ

فترى لها في الثاني حسنا لاتراه في الاول، ثم تنظر اليها في قول ربيعه الرقي:

قولي: نعم، ونعم إن قلت واجبة

قالت: عسى وعسى جسْرٌ إلى نعَمِ

فترى لها لطفا وخلابة وحسنا ليس الفضل فيه بقليل.

وينتهي عبد القاهر إلى أن الكلمة لو كانت اذا حسنت من حيث هي لفظ واذا استحقت المزية والشرف، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت أما ان تحسن أبداً أولا تحسن أبدا. (١)

ولعل الغرض الديني كان دافعا إلى هذا الرأي، لان كلمات القرآن الكريم عربية نطق بها الشعراء والخطباء وتداولها الناس، وليس لها مزية وهي مفردة لايضعها

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٨، ٦٢.

سلك بوحدّ بينها ويجمع متفرقها ،ولكي يظهر عبد القاهر إعجاز القرآن ويرد ما كان يشيع في البيئات المختلفة اتجه إلى نظرية النظم ليسدّ بها المسالك ويفندآراء المختلفين ويوقف طعنات الحاقدين.

ولم يقف عند الاهتمام بالنظم وانما اهتم بالتصوير الادبي الذي لايكون إلاّ بترتيب الالفاظ والتأليف بينها، يقول: «ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصّياغة وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أوسوار، فكما ان محالاً إذا انت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال اذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه. وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فصّه أنفس لم يكن ذلك تفضيلاله من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لايكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام »(١).

فعبد القاهر يرى أن للتصوير الادبي قيمة كبيرة، ولذلك أطال الكلام في «أسرار البلاغة» على الوسائل التي تجعل الصورة حسنة مقبولة، وفصّل القول في نظرية النظم، وذهب إلى أبعد من ذلك ورأى أن في الاستعارة مالايمكن بيانه الاّ بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته .يقول متحدثا عن الاستعارة في بيت الشاعر:

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

«فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تمّ لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما تُوخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة تلك وموازرته لها. وان شككت فاعمد إلى الجارّين والظرف فأزل كلاً منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل «سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره» ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٦.

والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التي كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها»(١).

إن الفصاحة عنده لاتكون إلا بتوخي معاني النحو ، أي النظم ، والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه في التركيب. فلو انك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عداً كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجري ، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد ، وبنسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»: «منزل قفا ذكرى من نبك حبيب» أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان ، وأسقطت نسبته من صاحبه ، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلت أن يكون له اضافة إلى قائل ونسب يخص بمتكلم (٢).

وانتهى إلى الحكم بالخطأ على من قصر الفصاحة على الكلمات من حيث هي ألفاظ منطوقة وأصوات مسموعة ، والأديب لايطلب اللفظ بحال ، وإنما يطلب المعنى فإذا ظفر به فاللفظ معه وإزاء ناظره ، ولذلك لم تكن الفصاحة عنده من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب.

إن عبد القاهر ربط بين الفصاحة والنظم ولذلك لم يُطل الكلام على شروط الفصاحة كما فعل معاصره ابن سنان الخفاجي ، ولكنه مع ذلك لاينكرها كل الإنكار ، ونراه يقول في خاتمة كتابه «دلائل الاعجاز»: «واعلم أنّا لاتأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الاعجاز ، وإنما الذي ننكره ونُفَيِّل رأي من يذهب اليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الأصل والعمدة فيخرج إلى ما ذكرنا من شناعات»(٣) ، فهو لم ينكر فصاحة الألفاظ ونغمها ولكنه لم يُرد أن يفسر الاعجاز بها ، ولذلك لم يدرسها كما

(١) دلائل الاعجاز ص٧٨.

(٢) أسرار البلاغة ص٨.

(٣) دلائل الاعجاز ص٤٠١ ، فيل - بتشديد الياء - رأيه: قبحه وخطأه.

فعل الآخرون ولم يُعْنَ بها عناية تظهر ميزتها وتأثيرها في الكلام (١).

**الـــرازي**.

عرف فخر الدين الرازي (ـ٦٠٦هـ) الفصاحة بأنها «خلوص الكلام من التعقيد»(٢) وهي – عنـده – تتصل بالمعنى، لأن الإفادة اللفظية يستحيل تطرق الكمال والنقصان اليها، فإن السامع للفظ إما أن يكون عالماً بكونه موضوعاً لمسماه أو لا يكون. فإن كان عالماً به عرف مفهومه بتمامه، وإن لم يكن عالماً به لم يعرف منه شيئاً أصلا.

وحصر البحوث المتعلقة بالدلالة اللفظية في امرين.

**الاول**: ان الفصاحة والبلاغة لايجوز عودهما الى الدلالة اللفظية.

**الثاني**: ان الفصاحة وان كانت غير عائدة الى الدلالة اللفظية، لكن من الامور العائدة الى جوهر اللفظ والى دلالته الوضعية مايفيد الكلام كمالاً وزينة وجمالا (٣) وهذه فكرة عبد القاهر التي بنى عليها نظريته في النظم، ويرى بهاء الدين السبكي أن الرازي يميل الى ان الفصاحة راجعة الى الالفاظ والمعاني (٤).

**ابن الاثير**:

وكان ضياء الدين بن الاثير (ـ٦٣٧هـ) اوضح من السابقين تصوراً وفهماً للفصاحة، وقد اهتم بها اهتماماً عظيماً وصحح كثيراً من الآراء في كتابيه «المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر» و«الجامع الكبير». يقول عن الفصاحة: «اعلم ان هذا باب متعذر على الوالج ومسلك متوعر على الناهج، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه، ولم أجد من ذلك ما يعوّل

---

(١) ينظر الفصل الثالث «اللفظ والمعنى» في كتابنا «عبدالقاهر الجرجاني – بلاغته ونقده» ص ٨٧– ١١٨
(٢) نهاية الايجاز ص٩.
(٣) نهاية الايجاز ص١١.
(٤) عروس الافراح– شروح التلخيص ج١ ص١٣٥.